AJRS

https://albalqajournal.ammanu.edu.jo/
المجلد (24) العدد (1) 2021

مجلة البلقاء
للبحوث والدراسات

التكنولوجيا وأخلاق المسؤولية

مالك المكانين [1]

[1]محاضر غير متفرغ في الجامعة الأردنية, كلية الآداب, قسم الفلسفة ORCID 0000-0002-8538-3324

الهاتف: 0795127647 البريد الإلكتروني: Almkaneen@gmail.com

الملخص

تتناول هذه الدراسة مشكل التقدّم, وما آل إليه من تقنيات راهنة تأخذ معنى السلطوية المعرفية والثقافية, وما ينطوي عليه هذا المعنى من تهديدات وجودية تمس الإنسان والطبيعة, ما كشف حقيقة مسؤوليتنا الأخلاقية وحتميتها إزاء الوجود وجدليته بين الإنسان والطبيعة, لا سيما مع تنامي قدرتنا العلمية وممارساتنا التكنولوجية الجماعية. وباستخدام المنهج التحليلي والنقدي, تعالج هذه الدراسة سؤال العلموية ومفاعيلها الراهنة, إذ أصبح التفكير العلموي عقل علم لا عقل له! يأذن بفكر دوغمائي يخلع على نفسه أحقية التسليم المطلق به. بينما ديونطولوجيًّا, أي نزوع علمي منبت الصلة عن الأخلاق؛ هو ضرب من الجنون التقانوي, والجنوح الحتمي نحو الهاوية, بما يمثله من مخاطر على شروط الحياة الطبيعية في الحاضر وأفقه المستقبلي, جرّاء تطور تكنولوجي ليس محايدًا البتة, نتيجة حصر العلم في غاية أداتية, تحايثها رهانات إيديولوجية (سياسية واقتصادية) مدفوعة بإرادة القوة, والرغبة في السيطرة.

الكلمات المفتاحية

الأخلاق, التكنولوجيا, السيطرة, الطبيعة ,العلموية, المسؤولية.

AJRS

/https://albalqajournal.ammanu.edu.jo
Vol.(24) No.(1) 2021

Al-Balqa Journal
for Research and Studies

Technology and Ethics of Responsibility

Malek Almkaneen[1]

[1] Part-time lecturer in the University of Jordan, Faculty of Arts, Department of Philosophy. ORCID number: 0000-0002-8538-3324

Tel: 0795127647 e-mail: Almkaneen@gmail.com

Abstract

This article is concerned with the problem of progress, namely, of how contemporary technologies emerged to express knowledge and cultural powers that would existentially affect humans and nature; thus revealing the necessity of our ethical responsibility toward existence and its dialectical relations between humans and nature, and especially with the collective development in our scientific and technological capabilities. By using analytical and critical approach, this article tries to tackle the question of scientism and its current implications, due to the fact that scientific thinking is evolving towards a kind of unreasonable scientific logic! It is a kind of dogmatic thinking pronouncing itself as having the right of being absolutely true. From a deontological perspective, any scientific trend that is detached from ethics is a kind of technological madness falling towards the abyss, with all what it represents of threats on the current and future foundations for natural life, due to prejudices against technological progress related to an ideological bets, both political and economic, of instrumental science driven by the well of power and the urge to dominate.

Key words

Domination, Ethics, Nature, Responsibility, Scientism, Technology.

مقدمة:

كيف تحول العلم إلى وسيلة للموت بالمعنى الحقيقي والمجازي معًا؟ وبتعبير آخر: كيف تحول الإنسان إلى ضحية تقدمه؟! وأيّ موطئ قدم للأخلاق في عالم يسيطر عليه الفهم المادي؟ وبأي معنى يمكن أن نفهم الحالة المرضية للأخلاق راهنًا؟ أم أنّ الأخلاق استحالت إلى شيء من الماضي، وفي ذمة التاريخ؟ كيف يمكن الحديث عن الأخلاق في عصر تأليه العلم؟ وكيف يمكن إنقاذ الأخلاق من محنة المصير الذي فُرض عليها، بوقوفها بوجه التقدّم العلمي، بكل ما يمثله من تقنيات متطورة، وجاذبية الرفاه البشري، رغم ما تعانيه الأخلاق اليوم من نسبية وتأخر قبالة تطور علمي هائل؟ تسعى هذه الدراسة للإجابة عن مثل شاكلة هاته الأسئلة، في حجاج فلسفي يتناول علاقة الأخلاق بالتكنولوجيا، لمعاجلة مشكل راهن للأخلاق وقيمها، في محاولة لوسم التطور العلمي بميسم الأخلاق، ابتغاء حفظ شروط الحياة الطبيعية.

تناقش هذه الدراسة سؤال التقدّم ومتعلقاته العلموية، التي انزاحت بالعلم ليأخذ دور الأديان التقليدية، ولكن ليس بوصفه خلاصًا للبشرية، وإنما تهديدًا يطال خطره الوجود الإنساني والبيئي، نتيجة فهم خاطئ لعلاقة الإنسان بالطبيعة، ساهم في الانعتاق من كل القيود، لاسيما الأخلاقية، بتوسيع حدود العلم، وترجمة مجالات الحياة كافة من خلال مفاهيمه وأدواته، زعمًا بأنه وحده من يضع حدود ما يمكن معرفته، فالمعرفة الوحيدة التي تكون يقينيّة، هي تلك التي نستطيع أن نخلع عليها معنى علميًّا، وبالتالي لا معرفة خارج حدود العلم. وغيرها من ادعاءات يمكن تصنيفها ضمن نظرة دوغمائيّة للمنتج العلمي، قوامه الزعم بسيادة العلم.

يأخذ فلاسفة الأخلاق النظرية، لاسيما أنصار البيئة، حسًّا مشتركًا بالتخوف من الممارسات الجماعية للتكنولوجيا على نطاق واسع، وبالتالي سيطرة العلم على الثقافة الراهنة، الأمر الذي خلق موقفًا معاديًا للحداثة، وضرورة مراجعة مقولاتها. فالأمر لديهم – هانس يوناس تحديدًا – لا يطال الماضي والحاضر فحسب، وإنما المستقبل أيضًا، فأفعال اليوم خطرها الأكبر على الأجيال القادمة أكثر، نتيجة ممارسات نقوم بها اليوم تؤثر على شروط الحياة الطبيعية سواء على الإنسان، أو على الطبيعة نفسها. وليس المقصد من نقد العلموية، التعمية على دور العلم وإيجابياته، فهذا أمر ليس باستطاعة أحد سليم الفهم، وإنما القصد إبراز دور العلموية في تجريد العلم أو تحويره عن غاياته الإنسانية النبيلة، وإلباسه أدوارًا ليست من خصائصه الأصيلة. وما تناقشه هذه الدراسة هو ديالكتيك المنتج العلمي مع الأخلاق، من خلال خطورة ترك التقدم العلمي يسير على عواهنه بلا حدود أو إلزامات أخلاقيّة، كاستشكال فلسفي خدمة لمشروع أخلاقي خاص بالتطورات العلميّة.

المبحث الأول: التقدّم كانزياح نحو السيطرة

انطلقت الحداثة الغربية بدءًا من دعوة ديكارت Descartes: "أن نجعل من أنفسنا مُلاكًا للطبيعة وأسيادًا لها"، في عبارة تشي بتحوّل جذري في نظرة الإنسان إلى الطبيعة بوصفها متاعًا يجب امتلاكه والسيادة عليه. إلى جانب ذلك جاءت إسهامات فرانسيس بيكون Francis Bacon ونظرته للطبيعة بوصفها آلة يجب فهمها، ومن ثمَّ السيطرة Domination عليها، في ما يسمى بـ "الأورغانون الجديد" كانقلاب على جميع التصورات الفلسفيّة واللاهوتية التقليدية، من خلال تأكيده الدور الرئيس للعلم في غزو الطبيعة The conquest of Nature والهيمنة عليها، وبالتالي رفض أي تصوّر لا يؤدي دورًا في سبيل تحقيق هذه الغاية، لاسيما الميتافيزيقا. ما يعني انبثاق عصر جديد تقوده الحرية وحدها في الكشف والمعرفة والسيطرة، (وهو ما يعبر عنه الفيلسوف جيلبر هوتوا Gilbert Hottois بقوله: "يجب أن نفعل كل ما يمكن فعله، فلا نترك تجربة ولا معالجة مخبرية طالتها أيادينا وعقولنا إلا أجريناها، ولا طريقًا تبدت أمامنا إلا استكشفناها، ولا بابًا انفتح إلا ولجناه، ولا سبيلًا من سبل استغلال إمكانات الكائن – مادة أو حياة أو فكرًا – تراءت لنا إلا اتبعناها"). (تاغييف، 2003، 113). وذلك في حضارة تبنّت مفهوم التقدم Progress، من خلال العلم ومقولاته، وبالتالي حرية فعل كل ما هو ممكن دون قيود أخلاقية أو لاهوتية.

إنّ لحظة انبثاق العصر الحديث اتخذت من مفهوم التقدّم مقعدًا لها، بالوقت الذي كان ديكارت وبيكون يرويان قصة التقدّم كحكاية منتصرة لكائن لم يرغب العيش وفقًا لشروط الطبيعة، بل فضّل مواجهتها والتغلب عليها، ومن ثمّ تسخيرها لصالحه، كيما يكون السيّد والمالك الفعلي لها. (Rubin, 2008, 157). بعد أن تمّ تصويرها كأفق مُباح للبحث العلمي لغايات السيطرة البشرية.

إلى جانب ذلك، كان تعزيز الإيمان بالعلم، هو السمة المهيمنة على التفكير البشري، فالحقيقة الوحيدة التي يمكننا معرفتها أو الوصول إليها، هي التي تكون وليدة العلم، وهذا ما صرّح به روجر تريغ Roger Trigg بقوله: (العلم هو وسيلتنا الوحيدة للوصول إلى الواقع). (Stenmark, 2018, 4). وإلى جانبه يؤكد ميشيل بيترسون Michael Peterson المعنى ذاته: (العلم يخبرنا بكل شيء يمكن معرفته عن ماهية الواقع). (Stenmark, 2018, 4). فما هو بعيد عن متناول العلماء، لا يمكن اعتباره معرفة، فالمعرفة الوحيدة هي من النوع العلمي Scientific Kind، وبالتالي لا توجد أنشطة معرفية صالحة أو سارية المفعول Valid باستثناء العلم. وهو الموقف الذي يميل إليه كارناب Rudolf Carnap، بالرغم من اعترافه بأن النطاق الكلي للحياة، لا يزال له العديد من الأبعاد الأخرى خارج نطاق العلم، لكن العلم برأيه لا يواجه أي عائق عندما نقول إنه من حيث المبدأ، لا يوجد سؤال لا يمكن للعلم إجابته. سنجد أيضًا أن هذا الرأي شائع داخل الوسط العلمي، حيث يتفق العالم ريتشارد ليونتين Richard Lewontin مع كارل ساغان Carl Sagan في أنه يجب على الناس قبول العلم كجهاز فكري، بوصفه "الوالد الوحيد للحقيقة". (Stenmark, 2018, 4-5).

تولّد عن هذه الهيمنة العلمية، وسيادة المنتج العلمي، المدعومة بتطور علمي هائل، ما يعرف اليوم بمفهوم العلموية Scientism، كنزعة علمية تدعي بداهة التصدي لجميع المشكلات التي تواجه الإنسان والطبيعة معًا. وقد برز من روّاد العلموية في مطلع القرن العشرين: كارناب، وهانز ريشنباخ Hans Reichenbach، وأتو نويراث Otto Neurath وغيرهم ممّن زعموا بأنه لا يوجد مجال للبحث خارج حدود العلم. إلى جانب بقية فلاسفة حلقة فينا Vien-na Circle، وأتباع الوضعية المنطقية Logical Positivism، والأمر يشمل بشكل أوسع برتراند رسل Bertrand Russell وغوتلوب

فريجه Gottlob Frege، وغيرهما ممّن قدّموا ادعاءات داعمة للعلم، تصب في تيار النزعة العلموية. (Sorell, 2003, 4).

يرى أنصار الاعتقاد العلموي أنه يمكن للعلم أن يجيب عن أسئلتنا الوجودية: من نحن؟ ولماذا نحن هنا؟ ومن أين أتينا؟...إلخ. إذ يمكن للعلم أن يكون دينًا يحلّ محلّ الأديان التقليدية. وهذا ما عبّرت عنه صراحة ماري ميدغلي Mary Midgley التي ترى في العلم وسيلة خلاص Salvation بديلة عن الدين في الحياة، فهي تقدّم تعريفًا أقرب إلى الطابع اللاهوتي للعلمويّة، من حيث هي (فكرة الخلاص من خلال العلم وحده). (Stenmark, 2018, 14). ليتم الدفع بالعلم نحو ادعاء القدرة على التعامل مع مشكلاتنا الوجودية، وتكوين تصور مفهوم عن عالمنا. في انزياح للعلم نحو السيادة والسلطويَّة؛ جرّاء الاعتقاد غير النقدي بقدرة العلم على التصدي لجميع الأسئلة حول العالم الطبيعي.

فالعلموية تدعي أنّ العلم – وخاصة العلوم الطبيعية – هو الأكثر قيمة في المعارف البشرية؛ لأنه الأكثر موثوقية Authoritative وجديّة Serious وفائدة Beneficial، في اعتقاد يشي بمحاولة تضخيم Exaggerates قيمة العلم، ودوره التوسعي بجميع مناحي الحياة. (Sorell, 2003, 1). فالعلموية إيمان بأنّ العلم ليس له حدود، ما يعني له الاستطاعة على الإجابة عن جميع الأسئلة، وتقديم الحلول لجميع مشاكل الإنسان العملية. وفي تناوله النقدي لهذا المفهوم، يرى آرثر بيكوك Arthur Peacocke أنّ العلموية جاءت نتيجة ميل العلم إلى التسلّط Imperiousness في حياتنا الفكرية والثقافية، فهي موقف قائل بأن النوع الوحيد من المعرفة الوثوقية، هو ذلك الذي يوفره العلم، إلى جانب الاقتناع بأنّ جميع مشاكلنا الشخصية والاجتماعية والنظرية والعملية والأخلاقية والنفسية، يمكن معالجتها بواسطة العلم وحده، ما يستدعي ترجمة كل شيء إلى مصطلحات العلم، والتعامل بأدواته، فيما يعرف بالعلموية الشمولية Comprehensive Scientism. (Stenmark, 2018, 15).

ثمّة خمسة ادعاءات متداولة تضفي على العلم الشرعية والأولوية، وتعزز عملية انزياحه نحو الهيمنة، هي: (1) العلم موحّد Unified (2) لا حدود للعلم (3) العلم حقّق نجاحًا هائلًا في التنبؤ Prediction والتفسير Explanation والتحكم Control (4) تضفي مناهج العلم الموضوعية Objectivity على النتائج العلمية (5) العلم مفيد Beneficial للبشر. (Sorell, 2003, 4). ليبقى هذا الادعاء الأخير، أهم الادعاءات بالنسبة للعلموية التي تنطلق من فكرة أن العلم أهم معرفة، وأعلى قيمة في حياة الإنسان بين باقي المعارف كالدين والميتافيزيقا اللذين نُظر إليهما عادة كفكر بدائي ساذج Primitive، ومعيق لمفهوم التقدّم، من خلال الحفاظ على الإيمان بما هو خارق للطبيعة Supernatural. (Sorell, 2003, 7-8). ليتخذ هذا الإيمان قبالة الإيمان بقوانين الطبيعة تصورًا ضدًّا، فالفهم الذي يقدمه الدين أو الميتافيزيقا، بحسب الزعم العلمي الشائع، يمثل المقابل البدائي الذي يفتقد شروط الحقيقة للفهم العلمي. فالصراع التاريخي بين الدين والعلم، بحسب رسل، برهن العلم فيه أنه "المنتصر بلا منازع". من جهة أنّ العلم محاولة لاكتشاف حقائق عن العالم، ومن ثمّ القوانين التي تصل هذه الحقائق ببعضها، فضلًا عن إمكانية التنبؤ العلمي. ومن جانب عملي يغذي الادعاء القائل بأن العلم مفيد، قدّمت التقنيات العلمية وسائل الراحة والرفاهية للإنسان، ما يعني أن طريقة البحث العلمي مختلفة تمامًا عن طريقة الدين، حيث لا يبدأ العلم من افتراضات عامة – كليّة، بل من حقائق جزئية معينة من خلال الملاحظة أو التجريب، ليشتق قاعدة عامة من هذه الحقائق المكتشفة، فالعلم دومًا تجريبي، ويطرأ تعديلات على نظرياته، بينما حقائق الدين ليست مكتشفة، وإنما معدّة سلفًا وأبدية ومطلقة. (رسل، 1997، 7-3). لست مرغمًا هنا على إنكار رأي رسل، أو تأكيده، أو الدخول في أتون تفاصيل صراع الدين مع العلم، وإنما مناقشة هذا الرأي في سياق النزعة العلموية الداعية إلى أنّ العلم وحده كافٍ للتعامل مع أسئلتنا الوجودية، وبالتالي له القدرة على تكوين تصور عن العالم الذي يمكننا أن نعيشه.

تحت عنوان "إغراءات العلموية" The temptations of Scientism يتساءل إركي فيسا كوجونين Erkki Vesa Kojonen: لماذا العلموية هي إغراء يجب تجنبه؟ ويرى أنّ القول بالعلموية هو ادعاء معرفي، واقتناع بأن أساليب العلم هي الطرق الوحيدة الموثوقة لتأمين المعرفة، ما يعني تأليه العلم Deified Science، ومعاملته كدليل حصري للواقع أو الطبيعة. فنجاح العلوم الطبيعية في فهم الطبيعة، وأهمية التكنولوجيا في حياتنا، هما حجة لصالح القيمة العامة للعلم، وكأننا أمام نوع من الامتداد Extension للسلطة الثقافية للعلم، كإمبريالية علمية Scientific Imperialism لا مبرّر لها. (Kojonen, 2016, 4). وذلك باستبعاد العلموية للنشاطات المعرفية الأخرى، ومصادرة صفة العلم أو العقلانية، وحصرها في الحقائق العلمية فقط.

من وجهة نظر مماثلة، تدعم شرعية هذا التساؤل، ثمّة من يرى أنه من غير الجائز أن يضع العلم حدودًا لما هو موجود أو مقبول أو عقلاني، ومن المبالغة الزعم بأن المعرفة التي يمكن الحصول عليها من خلال المنهج العلمي تستنفد كل معرفة، إذ ثمة نشاطات أخرى مهمة، وضرورية في حياة الإنسان تقع خارج حدود المعرفة العلمية: كالأخلاق والفن والفلسفة والدين والأدب. (Stenmark, 2018, 7).

وكمثال على توسيع حدود العلم خارج اختصاصه، يعتقد أنصار العلمويّة بإمكانية صياغة علاقة بين العلم والأخلاق، فيما يعرف بالعلموية الإكسيولوجية Axiological Scientism، فيرى ميشيل روس Michael Ruse أنه على أساس النظرية الداروينية Darwinism حول طبيعة التطور، يمكن تقديم "تفسير كامل" للأخلاق، والفكرة الأساسيّة لديه هي أن الأخلاق "آلية تطوريّة" Evolutionary Mechanism تعزز بقاء جيناتنا. أمّا إدوارد ويلسون Edward Wilson فيراهن على قدرات العلم التي قد يكون بمقدورها قريبًا التحقيق في أصل ومعنى القيم الإنسانية التي تنبعث منها جميع التصريحات الأخلاقيّة، فهو يعتقد بأنه من خلال إعادة بناء الفيسيولوجيا العصبيّة Neurophysiological والتطور الوراثي Phylogenetic Reconstructions للعقل، سيتم تشكيل بيولوجيا الأخلاق Biology of Ethics التي قد تجعل من الممكن اختيار "مدونة قيم أخلاقية" Code of Moral Values. ولكن ويلسون لا يذكر لنا شيئًا عن محتوى الأخلاق التي قد يؤسِّسُها العلم، لكنه مقتنع بأننا في يوم من الأيام سنكتسب عن طريق البيولوجيا العصبية Neurobiology مدونة أخلاق دقيقة جينيًّا، ومن ثمّ لا يمكن تفسير الأخلاق التقليدية فحسب، بل سيتم استبدالها بالعلم. (Stenmark, 2018, 12).

نلاحظ هنا، مدى الهوس بالعلموية The Obsession of Sci-entism الذي يسيطر على طريقة تفكير العديد من الفلاسفة والعلماء، بمحاولة زج العلم في شتى الميادين، بما في ذلك تلك التي ليست ضمن حدوده المعرفية، حيث يمكن ترجمة الموقف السابق، إلى ادعاء علمي Claim to Scientific يرى أنصاره أن العلم وثيق الصلة بالأخلاق، ليكون المصدر الوحيد لتفسير السلوك الأخلاقي، من خلال تطوير نظرية أخلاقية مؤسسة علميًّا. فتسيير حياة الإنسان بموجب أفعال خلقيّة، بحسب هذا الادعاء، هو أمر يمكن اشتقاقه من خلال نظرية التطور Theory of Evolution، أو العلم بشكل عام. (Stenmark, 2018, 12). ولنلاحظ أيضًا، أن هذا الادعاء مجرّد أمنية تتغذّى على الإيمان التام بقدرات العلم، والاتكاء على خط سير التطور العلمي، فعملية التنظير التي يمارسها بعض العلمويين، دائمًا ما تفتقر إلى أساس علمي يثبت صدق ادعاءاتهم، التي تأخذ صيغة الاحتمالية، وليس الحقيقة العلمية.

وحتى لا نضع جميع العلمويين في سلّة واحدة، وجب ذكر أن رسل - وهو من أنصار العلم- اعترف باستحالة تأسيس أخلاق على أساس علمي، ورأى أن الأخلاق أو مسائل القيم ليست من اختصاص العلم، الذي لا يستطيع أن يحتوي على جمل أخلاقية؛ لأنه مختص بما هو "صادق وكاذب" وليس بما هو "خير وشر". (رسل، 1997، 127-130). كما يرى أيضًا موراي روثبارد Murray Rothbard – وهو من منتقدي العلموية – أن العلم لا يجب أن يصدر أحكامًا قيمية، وإنما يقتصر دوره على أحكام الحقيقة. (Rothbard, 1960, 173)، في موقف رافض للترجمة التوسعيّة Expansionism للعلم على حساب حقول ثقافية ومعرفية أخرى، لها أدواتها ومناهجها الخاصة بها.

نموذج آخر على التفكير العلموي، وهو عن علاقة العلم بالإبستيمولوجيا، ثمّة ادعاء أنّ سؤال: كيف نعرف؟ لم يعد سؤالًا فلسفيًّا، بعد أن تم استبداله بسؤال: كيف يعمل الدماغ؟ ليصبح من اختصاص علم الأعصاب Neuroscience. هذا إلى جانب ما تم ذكره، عن المطالبة بتجنيس (تطبيع) Naturalization الأخلاق علميًّا، والاعتراف بأساسها البيولوجي. (Sorell, 2003, 3-4). ثمّة أيضًا ما يسمّى بالهندسة الاجتماعية Social Engineering كمصطلح يرمي إلى أنّ البشر لا يختلفون عن الموجودات المادية، وبالتالي يجب تصميمهم Blueprinted، وإعادة تشكيلهم Reshaped بالطريقة ذاتها للأشياء المادية من قبل مهندسين اجتماعيين. (Rothbard, 1960, 165-166). وهو ما عبّر عنه باكرًا كوندورسيه Condorcet – ما قبل الثورة الفرنسيّة – بزعمه ضرورة دراسة الإنسان والمجتمع البشري بأساليب العلوم الطبيعيَّة. (Berta-lanffy, 1960, 205). من الواضح هنا المغالاة Overemphasized، في إعطاء أهمية بالغة للدور الذي قد يقدّمه العلم، بالحديث عن الإنسان والأخلاق والمعرفة، بلغة مادية Physical Language، ما يضفي – من وجهة نظري – اعتباطية، وعبثية أخلاقية لوظيفة العلم؛ نتيجة التطبيق غير النقدي لمنهج العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية والإنسانيّة.

وفي معالجته لمفهوم العلمويَّة، يرى كوجونين أن مشكلة العلموية تكمن في أنها تقلّل من أهمية الفلسفة واللاهوت Theology، وأساليب أخرى للتفكير اليومي التي يمارسها الإنسان. أمّا مشكلتها الأكثر إحراجًا، فهي حصر المعرفة في العلم كادعاء فلسفي، وليس كحقيقة علمية، ففي هذه الحالة تبدو العلموية وكأنها تدحض ذاتها؛ لأن هذا الادعاء الفلسفي ليس في حد ذاته نتيجة بحث علمي، لذا يبدو أن دفاع العلموية عن نفسها يفترض أن يكون هناك معرفة خارج العلم، وإلا فلا يمكن الدفاع عن العلموية نفسها. فإذا كانت هذه الفكرة الفلسفية "عقلانية" من خارج العلوم الطبيعية، فلماذا لا يكون هناك أفكار فلسفيّة أخرى عقلانية ومقبولة أيضًا؟ صحيح أنّ العلوم الطبيعية نجحت في اكتساب المعرفة حول أشياء كثيرة، ولكن يمكن تقدير هذا النجاح وإبراز أهميته، دون افتراض أنّ العلم هو الطريقة الوحيدة لاكتساب المعرفة، حيث يمكن استخدام مجالات التفكير الأخرى القائمة على الأدلة، حتى لو كانت مختلفة عن طرق المعرفة للعلوم الطبيعية، لاسيما تلك التي تستخدم الملاحظة Observa-tion، والذاكرة Memory، والحدس العقلاني Rational Intuitions وغيرها. (Kojonen, 2016, 5).

ملاحظة أخرى يضمنها موراي روثبارد، حيث يرى أنه في محاولة إدانة أو نقد العلمويّة، لا ينبغي الوقوع في خطأ رفض العلم، فهو يبقى أكثر أهمية من محاولة الوضعيين احتكاره. فالعلموية برأيه هي محاولة غير علمية Unscientific لنقل منهجيّة العلوم الفيزيائيّة – الطبيعية، دون نقد إلى ميدان دراسة الفعل البشري (العلوم الإنسانية)، فالبشر يمتلكون الإرادة الحرة Freewill والوعي Consciousness، وهم بالتالي ليسوا جزيئات Molecules وكواكب يتم تحديد مساراتها Courses بشكل آلي وصارم. (Rothbard, 1960, 159). ومن هذه الحقيقة، يمكن استنتاج أنّ العلموية هي سوء تطبيق طرق العلوم الطبيعية في المجالات التي لا تنتمي إليها. (Bertalanffy, 1960, 205). ويمكن تلخيص عيبها الأساس في الاعتقاد الخاطئ بأن العلم (المنهج العلمي)، يمكن أن يغطي كامل التجربة الإنسانية. (Bertalanffy, 1960, 215).

يسعى أنصار العلموية، لمعالجة ما يصفونه "بالدونية" Plight التي تعاني منها العلوم الاجتماعية والإنسانية، من خلال اتباع خطى العلوم الطبيعية. بينما يعتقد روبرت شتراوس Robert Strausz-Hupe أن الأساليب المحدّدة للعلوم الطبيعية لا يمكنها أن تشمل نطاق الظواهر الاجتماعية، وسوف تؤدي إلى نتائج لا معنى لها من الناحية العلمية، كما أنها قد تعد ضارة بشريًّا واجتماعيًّا. إنّ العلم لا يشمل، ولا يدعي أنه يشمل كل التجارب البشرية، بل يسعى لتقريب الحقيقة حول العالم ضمن حدود وسياقات محدَّدة بدقة، ولن يدّعي أي علم حقيقي المزيد، ولكن ما يصفه شتراوس "بابتذال العلم" The vulgarization of Science عن طريق العلموية، دفع العديد من العلماء الذين "فقدوا رؤية الأسس الفلسفية لمهنتهم"، إلى التأكيد على أن العلم يحمل مفتاح جميع مشاكل التجربة البشرية. (Strausz-Hupe, 1960, 222-223). فهذا الادعاء سمح لتجليات العلم التطبيقية من تكنولوجيا حديثة تُمارس على أوسع نطاق، بالتغلغل أكثر في حياة الإنسان، مسببة نتائج سلبية على الإنسان والطبيعة.

ليس القصد من مقاربة التقدم والسيطرة، استقصاء مطارحات العلموية ومتعلقاتها في فلسفة العلم، وإنما استحضار هذا المفهوم بشكل وجيز بما هو نزوع نحو السيطرة، والخروج عن السيطرة، جاء نتيجة ما يمثله من "شر تقني"، وتهديد لإمكانية

الحياة، بالتلاعب بشروطها الطبيعية. ولتوضيح هذه المسألة، سأسمح لنفسي بطرح التساؤل التالي: ما علاقة مفهوم العلمويّة، بكل مفاعيله التوسعية، بمفهوم السيطرة؟ أو ما هي التهديدات المرتبطة بالممارسات التكنولوجية الجماعية؟

يتناول هيدغر Martin Heidegger مفهوم التقنية على نحو ماهوي، ويرى أنه من الخطأ التسليم بحياديّة التقنية؛ لأنه أمر يحيد بنا عن الوقوف عند ماهيتها. ما يستدعي التساؤل فلسفيًّا: هل التقنية وسيلة أم غاية؟ وهو سؤال مرتبط بماهية التقنية؛ أي بما هو هذا الشيء الذي يُسمَّى تقنية، في صيغة تنزع نحو إجابتين. الأولى: أن التقنية هي وسيلة لتحقيق غايات معينة. أمّا الثانية: تحدّد ماهية التقنية بما هي فاعلية خاصة بالإنسان. وهما تصوران متلازمان ومتكاملان (متعاضدان)؛ لأنَّ وضع غاية، ومن ثمّ خلق الوسائل، كالآلات والمعدات المحققة لتلك الغاية، هما فعل إنساني محض. فالغاية والوسيلة هما جزءان من ماهية التقنية بما هي فعالية غائية إنسانية. (هيدغر، 44).

يحاول هيدغر وضع التقنية رهينة التصوّر الأداتي لها، ضمن حدود "الاستعمال الجيّد" أو النافع Useful، كيما تبقى في نطاق آمن يمكن التحكم بها، (لهذا نريد – كما يقال – أن نتحكم في التقنية ونوجهها لصالح غايات "روحيّة". نريد أن نصبح سادة عليها. إنّ إرادة السيادة هاته تصبح أكثر إلحاحًا كلمّا هدّدت التقنية أكثر بالانفلات من مراقبة الإنسان). (هيدغر، 45). إنّ سؤال ماهيّة التقنية، هو سؤال الإمكان والحدود والسيطرة عليها، كيما تكون مجرّد وسيلة لتحقيق غايات معينة، بما هي وسيلة للتغلب الأداتي خدمة للإنسان نفسه. ولكن نزوعها لأبعد من ذلك، يعني إخراجها عن نطاق السيطرة، لتصبح هي ذاتها سيطرة. وبالرغم من اتفاق هابرماس Jürgen Habermas مع هيدغر في كون التقنية ليست إمكانية محايدة، إلا أنه يختلف معه في التصور الأداتي للتقنية (للعلم)، ويتبنى الفهم الذي يرمي إليها بوصفها "مطيّة" لتحقيق حسابات سياسية؛ إنها حسابات القوة والسيطرة، ما يعني أنّ التقنية العلميّة تنزع نحو سلطة ما.

لقد وصلنا إلى واقع تكنولوجي، يتطلب ضرورة ما يعرف بالسيطرة على السيطرة، ويرى ميشيل سير Michel Serres أن تصور "السيادة" Mastery و"التملك" Possession الذي أطلقه ديكارت مع مطلع العصر الحديث، ساهم في برمجة العقل على النزوع نحو السيطرة، كإستراتيجية للتحكم بالطبيعة طالما هي "مُلكيّة"، في صناعة جديدة لعلاقة الإنسان بالطبيعة. ويرى سير أنّ مجموع الضرر البيئي، حتى الآن، يساوي الدمار الذي قد تتركه حرب عالميّة، فالعلاقات التكنولوجيّة والاقتصادية التي تعمل ببطء واستمرار في زمن السلم، تخلق النتائج ذاتها لصراع عالمي قصير، كما لو أنّ الحرب لم تعد حكرًا على الجنود وحدهم، بعد أن تمّ إعدادها وتدشينها بأجهزة علميّة، كالتي يستخدمها المدنيون في البحث والصناعة مع تنامي وسائلنا الحديثة. فالدول المتقدّمة لم تعد تتقاتل فيما بينها، وكأنها تنقلب في حرب عالمية على الطبيعة. (Serres, 1995, 32). محدثة أضرارًا بيئية بالغة السوء، كالتغيُّرات المناخية، واستنزاف الموارد الطبيعية، والتلوث البيئي، وغيرها من مظاهر العنف إزاء الطبيعة، نتيجة تطبيقات تكنولوجية، وممارسات صناعية مدفوعة بالرغبة في السيطرة، والمشروطة بالقدرة الإنتاجية. من هذا المنطلق يعتقد روبرت شتراوس بخطر تفشي "آفة العلموية" في جميع قطاعات الحياة الحديثة، ويرى أن أخطر غزواتها كان في ميدان السياسة؛ في "الترسانة الديموغوجية" Demagoguery، ثمّ يستتبع قائلًا: العلموية هي أقوى "سلاح أيديولوجي سرّي". (Strausz-Hupe, 1960, 224). ما يكشف أزمة المدرسة العلموية، وكارثية مآلاتها الأخلاقيّة.

حسبنا الوقوف عند مصطلح "الإرهاب البيولوجي" Bioterrorism الذي يستخدمه جوناثان مورينو Jonathan Moreno للإشارة إلى عملية التوفيق بين "الراديكالية السياسية" و"التقنيات الحديثة" المدفوعة بسباق التسلح، بغية إنتاج سلالات من أسلحة أكثر تطورًا للقتل والتدمير، والإضرار بالإنسان والطبيعة، باستخدام أسلحة غير تقليدية: فايروسيّة وبكتيرية، وغيرها من أسلحة بيولوجية وكيميائية. (Moreno, 2007, 721-722). أنتجها علماء وصفهم هابرماس بأنهم بارعون جدًّا في تخصصهم، وساذجون جدًّا في السياسة؛ لأنهم لا يدركون حقًّا ما الذي خلقوه!

إنَّ العقل الخالق للحداثة التقانوية، بات اليوم أداتيًّا متورطًا، حتى مقولة "العقلانية" نفسها باتت في موضع اتهام. فالعقل التقني هو (ذاته إيديولوجيا، وليس استخدام التقنية بدءًا، إنما التقنية ذاتها سيطرة (على الطبيعة وعلى الإنسان)، سيطرة منهجيّة، علميّة، محسوبة وحاسبة). (هابرماس، 2003، 45). تساورها حسابات سياسيّة، هي حسابات القوة أو السيطرة الإستراتيجيّة. فالعقلنة بالمعنى الحداثي أو الأنواري Enlightenment باتت في عصر الرأسمالية انزياحًا نحو بعد مادي إنتاجي، سلب "صفاء" التقنية كقوة إنتاج خالصة، بلا حسابات أو معايير سياسية حصرت التقنية في وظيفة أداتية فحسب. (هابرماس، 2003، 48). فالعقلانية الغربية، فيما يرى هابرماس، منحت أولويّة للعقل الأداتي (الغائي)، قاصدة تحقيق مصالح وغايات معينة. (Habermas, 1984, 10).

إنّ هيمنة النزعة العلموية؛ تعني أفول الأخلاق Eclipse of Ethics في السلوك العلمي المعاصر، واستشراء الرغبة في السيطرة، نتيجة رغبة العلم بذاته التي تنزاح به إلى مجال السيطرة لأجل السيطرة ذاتها. إنّ الممارسات العلمية الشاملة وتطبيقاتها المفرطة على الطبيعة والإنسان تحتم الخضوع للعلم ونتائجه، في عصر لم يعد العلم وسيلة محايدة أو إنقاذية بالمعنى المحض، ما يكشف الوجه الحقيقي لعالمنا، بأنه عالم مهدّد، نتيجة نزعة علموية تجسّدُ تصورًا طوباويًّا عن العالم.

إنّ جملة المواقف السابقة الناقدة لمفهوم العلموية، انطلقت من ادعاء نظري لنزوع العلم خارج حدوده؛ ما يعني الترجمة العمليَّة لمفهوم السيطرة، بكل ما يتضمنه هذا المفهوم من مخاطر على الإنسان ومحيطه البيئي، والأمر يتضمن بشكل أوسع موقفًا مُشكّكًا بمقولة التقدّم، التي باتت مدعاة للتخوف على شروط الحياة الطبيعية، فالعلمويّة وما تروم إليه من سيطرة، تتطلب مواجهة أخلاقيّة تعاين الممارسات العلمية. وهذا هو موضوع المبحث التالي.

المبحث الثاني: العلمويَّة وأخلاق المسؤولية

انطلق الدافع العلمي – التقني من خلال سمة التحرّر، والترجمة التوسعيّة له، نازعًا مفهوم "القداسة" Sanctity عن كل ما هو موجود، بما في ذلك الإنسان، ليصار العلم إلى إله جديد يأخذ موقع الإله في اللاهوت. فكان من تبعات سمة التحرر، لاسيما الأخلاقي، أن برز موقف ينظر إلى التطور العلمي أو التقني من حيث هو خطر يطال الوجود الإنساني. (والحق أن مذهب ذريعة الداعي التقني/العلمي مذهب "لا أخلاقي في جوهره"، أو لنقل إنه، بصيغة أدق، "خارج على الأخلاق، إذ إن المبدأ الأساس في الأخلاق هو بالذات ألا يفعل المرء كل ما بإمكانه فعله، وأن يضع حدودًا للحرية تقف عندها لا تتجاوزها"). (تاغييف، 2003، 113). إنها حدود تمنع النزوع العلموي من الانتشار، والحد من تأثيره السلبي على الإنسان والطبيعة.

هذا النزوع غير النقدي خلق موقفًا معاديًا له، هو الموقف المناهض للعلم والحداثة – وتجلّياتهما في الممارسة التكنولوجيّة الجماعية – الذي لا يرى فيهما سوى العودة إلى "همجية جديدة" يسطرها العلم لا البدائية. ما دعا البعض للدفاع عن موقف أو حالة تكون مؤسَّسة على الأخلاق ابتداءً، (وهو ما لا يعني فحسب رفض التطور الأعمى الذي تشهده التقنية، بل وأيضًا اتخاذ موقف متشكك من المعرفة العلمية، يفضي إلى الإفتاء بمنع البحث العلمي في بعض الميادين، مثل ميدان علم الوراثة البشري الذي تبقى "الفتوحات" المحققة فيه مثارًا للمخاوف وداعيًا إلى القلق). (تاغييف، 2003، 113). ومرد هذه المخاوف هي حكاية إنسان تحوّل إلى مجرّد حقل للتجارب العلمية، ووسيلة لما يعرف بـ"التحسين أو التعديل الجيني" Eugenic، كضحية لمفهوم التقدّم نفسه، بما هو مادة استعماليّة لإجراءات التجريب، المدفوعة بالمنظور التقني للجسد الإنساني، وهو منظور يتمسك به أدعياء فكرة ترك الأمور التقنية تجري على عواهنها، كتوجه يصفه جاك إلّول Jacques Ellul بـ"تنامي التقنية تناميًا ذاتيًّا" الذي يجد في نظرية التطور دعامة له، وبما هو ينهج مبدأ نظرية التطور، فهو لا محدود، وبالتالي لاأخلاقي، (غير أن التصور التطوري ليس في حد ذاته سوى تمجيد للتقدم التقني منظورًا إليه بما هو خير في ذاته، بل وفي بعض الأحيان بما هو وسيلة للخلاص (...) إذ إنّ التقنية لا تعترف بأي مبدأ للتحكم الذاتي يمكنه – لو وُجد – أن يفتح السبيل أمام الأخلاق). (تاغييف، 2003، 113). ما يدفع إلى حاجة ملحة لمبادئ أخلاقية، ولتفكير أخلاقي جديد جرّاء ما تولّد عن هذا العصر من قضايا أخلاقية Moral Issues لم تكن موضوعًا أخلاقيًّا في السابق.

وعلى سبيل المثال، ظهرت نتيجة التطورات البيولوجية، وما وصلت إليه من تقنيات جينية خطيرة، ما يعرف اليوم بالأخلاق التطوُّرية Evolutionary Ethics، التي يمكن إرجاع أسسها الفلسفية إلى ميكافيلي Niccolo Machiavelli وهوبز Thomas Hobbes بما ساهما به من تسويغ لمفهوم "سيادة القوة". ثمّ ظهرت هذه الأخلاق بشكل أوضح مع داروين Charles Darwin، ثمّ هربرت سبنسر Herbert Spencer وغيرهما من أدعياء فكرة "البقاء للأفضل".

حاصل هذه المواقف، كان تطور بيولوجي مخيف، حذّر منه ألدوس هكسلي Aldous Huxley في كتابه (أفضل العوالم)، من حيث خطورة إيجاد إمكانية لظروف تجعلنا "نتحكم جينيًّا" بالوجود الإنساني، ونخضعه للتصنيف بين فئتين: دونية، ومتفوقة. (أنّاس، 2005، 424). في عالم قائم على فكرة الصراع التطوري للكائنات الحيّة، بما في ذلك الإنسان الذي هو في عمليّة انتخاب طبيعي، لسلسلة جينية نحو النشوء والارتقاء. الأمر الذي خلق توترًا Tension ميتافيزيقيًّا وأخلاقيًّا لمفهوم الإنسان، في تطور مخيف لمفهوم القوة على الصعيد العلمي.

إنَّ تطورات التقنية الجينية سلبت الإنسان من امتيازاته الميتافيزيقية في الموروث الديني والفلسفي، وجعلته مجرّد مستوى من مستويات التطور الجيني للكائنات الحية. فلم تعد تطورات العلم مقتصرة على التصور الكلاسيكي، في فهم الطبيعة وتذليلها لصالح الإنسان، بل شكلت قوّة تهدّد النوع الإنساني والوجود البيئي من حوله.

في السياق نفسه، أثبتت التطورات العلمية، تأخر الأخلاق التقليدية في ميدان العلم، ما دفع بالحاجة لأخلاق تجاري هذا التطور، وتستبصر مآلاته وأثاره، من جهة أن الأخلاق توصف بالكائن الحي المتطور بتطور الإنسان، بما هي هوية السلوك الإنساني. إنّ الفجوة الحاصلة بين الأخلاق التقليدية والتطورات العلمية، نتيجة مفاعيل التكنولوجيا الحديثة، أثبتت حقيقة عجز هذه الأخلاق عن احتوائها، وهو ما يصفه هانس يوناس Hans Jonas بالأبعاد الجديدة للمسؤولية New Dimensions of Responsibility. فالأمر هنا يبوح بضعف الطبيعة أمام التدخل التكنولوجي، وما يسببه من ضرر بيئي عليها، فكانت هذه الطبيعة، مسؤولية بشرية تمثل البعد الأخلاقي الجديد الذي يجب التفكير فيه لدى النظرية الأخلاقية المرجوُّة. (Jonas, 1984, 6-7). فمبدأ غزو الطبيعة والسيطرة عليها، الذي أطلقه بيكون، نجم عنه حقيقة عبّر عنها يوناس بعبارته: (إنّ اغتصاب الطبيعة وحضارة الإنسان متلازمان). (Jonas, 1984, 2). فكانت الطبيعة هي الموضوع الأخلاقي للمدرسة الإيكولوجية Ecology التي تندّد بالوضع البيئي للكرة الأرضية ومستقبلها، في ظل تحدّيات تكنولوجية تؤثر على الأفق البيئي الذي يحيا به الإنسان، ما يستدعي الحاجة لتأملات فلسفية في كنه التكنولوجيا ومفاعيلها، لاسيما في اللحظة الراهنة التي استعصى مفهوم التقدّم على الفهم الأخلاقي، وانزاح لحرية مطلقة قد تكون مدمرة.

اختار يوناس لكتابه (حتمية المسؤولية) The Imperative of Responsibility، عنوانًا فرعيًّا، هو (البحث عن أخلاقيّات العصر التكنولوجي)، ما يعكس ادعاء لديه بأنّ التكنولوجيا الحديثة غيّرت بشكل أساسي نطاق العمل البشري، فاستلزم فهمًا ونهجًا أخلاقيين جديدين، لإخضاع التكنولوجيا لاعتبارات أخلاقيّة، كونها ممارسة للقوة البشرية، وشكل من أشكال العمل، وكلّ عمل بشري يجب أن يكون مسؤولًا أخلاقيًّا، فمن غير الواضح إلى أين تقودنا تقنيتنا؟ وما هي مخاطرها وحدودها؟. وفي سياق معالجته لمشكل التكنولوجيا، ومن ثمّ ضرورة الاستجابة الأخلاقية Ethics Response لممارساتها، إلى جانب صعوبة التنبؤ بأضرارها المستقبليّة، يرى يوناس أن هذا الموقف يجب أن لا يعني رفض التكنولوجيا ككل، وإنما الحاجة إلى فحص نقدي لها، وإعادة التفكير بمكانتها في حياة الإنسان. (Morris, 2013, 143-145).

إنّ التقنية Techno لم تعد اليوم محدودة لغايات محدَّدة

للإنسان، بل تحوّلت إلى "اندفاع غير محدود للأمام" Into an In-finite for Ward-thrust، ما يجعلها تتخطى تقدّمها الذاتي، كقوة منطلقة وغير مقيّدة Unbound، وكأنها دعوة للسيطرة القصوى على الأشياء، وعلى الإنسان نفسه؛ دعوة تقنية للإنسان "لاستكمال مصيره" The consummation of his Destiny، لذلك تكتسب التقنية أهمية أخلاقية من حيث المكانة المركزية التي تحتلها اليوم. فمع تنامي الفعل التكنولوجي، يصبح الإنسان "صانعًا لما صنعه"، و"فعلًا لما يمكنه فعله"، والأهم من ذلك، "المُعد – المهيء The preparer لما سيكون قادرًا على فعله" بعد ذلك. وهو ما يتطلب حتمية ما، فإذا كانت الصناعة قد غزت فضاء الفعل الأساسي للإنسان، فإنّ من واجب الأخلاق أن تغزو عالم الصناعة. (Jonas, 1984, 9). ويعني ذلك حتمية المسؤولية الأخلاقية إزاء تنامي القدرة التقنية وشموليتها.

انبرى يوناس لفكرة المسؤولية المتعلقة بمفاعيل التكنولوجيا الحديثة على الإنسان والطبيعة، وما يصفه بالفراغ الأخلاقي The ethics Vacuum، يتعلق بفكرة الخوف من عدم اليقين أو الريبة Uncertainty بشأن سيطرة الفعل التكنولوجي. فالأخلاق المطلوبة اليوم، هي لتنظيم القدرة على التصرف التكنولوجي؛ إنها أخلاق مؤهلة للتوجيه والإرشاد Guidance. فالممارسة التكنولوجية الجماعية خلقت تحدّيًا أخلاقيًّا لم تعرفه البشرية من قبل، بسبب حداثة أساليبها، والطبيعة غير المسبوقة لبعض أهدافها، والحجم الهائل لمعظم مؤسساتها، والانتشار التراكمي Cumulative لآثارها، وهي جميعها تمثل اليوم سمات الممارسة التكنولوجية. (Jonas, 1984, 22-24).

إنَّ التهديد الذي تمثله التكنولوجيا على البيئة، يأخذنا لإعادة النظر في أحد أقدم الأسئلة الفلسفيّة عن علاقة الإنسان بالطبيعة، والعقل بالمادة، فالأزمة البيئية نشأت نتيجة تطور تكنولوجي غير منضبط في إطار أخلاقي. فمن أجل دعم واجب المسؤولية، يعيد يوناس محاكمة النظرة الديكارتية للعالم، التي رأى فيها جذور الأزمة البيئية، ويعمل على إعادة القيمة إلى الطبيعة، والإنسان إلى مكان ذي مغزى داخلها. فتأثير الممارسات التكنولوجية على الطبيعة، ضار بشكل غير مسبوق، نتيجة فهم نظري لموقع الإنسان كموجود منفصل عن الطبيعة. (Morris, 2013, 15-16). والحق أن هذا التصور غير مبني على الفهم الجدلي لعلاقة الإنسان بمحيطه الحيوي The biosphere، الذي ينفي وجود حدود فاصلة بين الإنسان والطبيعة، ويؤكد حقيقة مصلحة الإنسان الماكثة داخل مصلحة الطبيعة نفسها في مصير مشترك. (Jonas, 1984, 136-137). وهي الجدليّة التي تؤكد خطأ الاعتقاد الديكارتي بهذا الفصل، ومن ثمّ خطورة العقيدة البيكونية المتمثلة في مبدأ غزو الطبيعة والسيطرة عليها.

يستكمل يوناس نقده للتصور الديكارتي، ويرى أنه تصور ينتج عن العدميّة Nihilism في فهم الطبيعة على أنها مجرّد مادة عمياء – ليس لها حقوقًا – وبالتالي فالإنسان يُلقى به في عالم لا معنى له. ومن أجل معالجة أزمة التكنولوجيا، كان لا بدّ من إعادة القيمة لهذه الطبيعة، وإكسابها حقوقًا ضرورية. (Morris, 2013, 89). فمع تفوق العقل الحديث، وما تولّد عنه من قوى مفرطة للحضارة التقنية، اكتسب الإنسان القدرة التكنولوجية الكامنة في إرهاق الطبيعة Overstraining Nature، فلم يكن من الممكن سابقًا أن تتعرّض الطبيعة لخطر أكبر ممّا ينتجه إنسان الحضارة التقنية، فسابقًا كان العقل النظري الأرسطي يقف فوق الطبيعة ليتأملها، ولكنه لم يضرّها في التفكير بها، ولكن وريث هذا العقل النظري، هو عقل متحرّر Emancipated، عدواني Ag-gressive، منحه العلم الحديث وظيفة أداتية Instrument، فتخلّى عن وظيفته النظرية، لصالح أفعال ألحقت أضرارًا بالطبيعة. (Jo-nas, 1984, 138-139). نتيجة تكنولوجيا حديثة، وآثارها التراكمية، المدفوعة بأجندات الاقتصاد والسياسة تحت ستار العلم.

يتفق ميشيل سير مع يوناس حول مشكل علاقة الإنسان بالطبيعة، وبأن جذور هذه الأزمة تعود إلى تصريح ديكارت حول فكرة السيادة والمُلكيّة، بما هي تطبيق لحقوق المُلكيّة الفردية أو الجماعيّة على المعرفة العلمية والتدخل التكنولوجي. ففكرة السيادة تمّ ترجمتها كأولويَّة الإنسان على الطبيعة، وهي أولوية تعكس نرجسيّة Narcissism منحته المركزية في الوجود. ولكن الحقيقة التي يشير إليها سير، هي أنّ الأرض وجدت من دون الإنسان، ويمكن أن تستمر دونه، بينما لا يمكن للإنسان الوجود دونها، هكذا نضع الطبيعة في المركز Center، والإنسان في الهامش Periphery. إنَّ سير يقلب التصور الديكارتي، ويرى ضرورة التخلي عنه؛ بسبب ما نجم عنه من تفاعلات سلبيّة بين الإنسان والطبيعة. فالسيادة تدوم لفترة محدودة، ثمّ ستنقلب إلى عبودية وسيطرة على الإنسان نفسه، نتيجة الفعل التكنولوجي، بل حتى الطبيعة "كمُلكيّة" قد تنتهي بالتدمير الذي نلحقه بها، فالسيطرة أو السيادة غير المنظمة التي تتجاوز الغرض منها، تعود وبالًا على الإنسان نفسه بتدمير "مُلكيّته". (Serres, 1995, 33-34). فمن الناحية الأخلاقية، يمثل تهديد الطبيعة تهديدًا مباشرًا للإنسان، كونها موطنه، فالحديث عن أي تهديد للطبيعة، يتضمن ضررًا على الوجود الإنساني في نهاية الأمر.

إن تسارع وتيرة التقدم، وانتشار الفعل التكنولوجي، وبعبارة أخرى، إنّ سيطرة مفاعيل العلموية، تضعنا أمام حقيقة مفادها أن الإنسان والطبيعة على حد سواء في خطر، وتحت تهديد مباشر بالفناء. هذا التهديد خلق حاجة بإحساس ضميري يوصف بمسؤولية الإنسان عن نوعه، وبقاء الطبيعة من حوله. ويرى يوناس أنه ليس لدينا الحق في المخاطرة بعدم وجود إنسانية قادمة، نتيجة البحث عن حياة أفضل للأجيال الحالية، فنحن مسؤولون عن المستقبل بقدر مسؤوليتنا عن الحاضر؛ أي ملتزمون أخلاقيًّا تجاه ذلك الذي لم يحدث بعد. (Jonas, 1984, 11). فالغرض الذي يسم مبدأ المسؤولية، هو تحقيق هدف ذي نبل أخلاقي، يحتّم على العلم، أو الممارسات التكنولوجية أن تكون على الدوام ذات غرض أخلاقي Moral Purpose، قوامه الإحساس بالخوف.

إنّ المستقبل هو الاستشكال المركزي لفلسفة يوناس الأخلاقيّة، فالنجاحات الكبيرة للقدرة التكنولوجية، وما نتج عنها من زيادة في مفهوم القوة، جعل البشر مثقلون بمسؤوليات طويلة الأجل Long-term مصاحبة لتلك القوة، فهذه المسؤولية تمتدُّ نحو المستقبل، مضيفة بعدًا جديدًا للأخلاق، يستلزم نهجًا أخلاقيًّا جديدًا. فالآثار التراكميّة لأفعالنا اليوم تمتدّ إلى حياة الأجيال القادمة التي ستتحمل عواقب Consequences حقيقة أننا نرهن الحياة المستقبلية لمزايا واحتياجات حالية قصيرة الأجل Short-term، وغالبًا ما تكون ذاتية. فمن الضروري وهكذا مصير

مشترك مع أجيال المستقبل، أن نتحمّل مسؤولية هذه العواقب المستقبلية بإنصاف أولئك الذين سيأتون بعدنا. (Morris, 2013, 187-188). وبالتالي فإنّ من واجبات مبدأ المسؤوليّة إيقاف هذا النزوع؛ أي "سيطرة على السيطرة" أو "سلطة السلطة". (روس، 2001، 112). حرصًا على حياة آمنة، وخوفًا على مستقبل النوع الإنساني من التطورات العلمية، والفعل الانتشاري للتكنولوجيا الجماعية.

ينص "واجب المسؤولية" على ضرورة الاعتقاد الملازم للفعل التكنولوجي، بمسؤوليتنا تجاه الإنسان والطبيعة في الوقت الحالي، وفي المستقبل القادم أيضًا. وانطلاقًا من هذا الواجب، يناقش يوناس ضرورة ضبط العلم بحدود أخلاقية، خوفًا من تحوّله إلى خطر يهدد الإنسانية، وكيلا تصار وعود التقنية التي تروم خدمة الإنسان ورفاهيته، إلى تهديد وجودي. فـ "استدلالات الخوف" Heuristics of Fear لديه تأخذ مكانة التوقعات أو التنبؤات في العلم، الخوف ممّا يجب أن نحذر منه، إلى جانب عدم كفاية معرفتنا التنبؤية، وامتثالًا لقاعدة براغماتية تفيد إعطاء الأولوية لنبوءة الهلاك The prophecy of Doom على نبوءة النعيم. (Jonas, 1984, x). ذلك أنّ هلاك المستقبل نتيجة أفعالنا اليوم بات احتمالًا حقيقيًّا. فأخلاقيًّا لا يمكننا المخاطرة بالوجود المستقبلي للإنسان أو الطبيعة، لتحقيق مكاسب قصيرة الأجل، وبدل الافتراض أن كل تطور جديد هو تحسين تدريجي، وأننا سنحل جميع المشكلات حينما تظهر لنا. يجب علينا أن نتخيّل دومًا الأسوأ، وأن ننتبه أكثر إلى نبوءة الهلاك، وأن نتوقع السيناريو الأخطر قبل اتخاذ أي إجراء، فمسؤوليتنا لا نهاية لها، نتيجة قوتنا التكنولوجية. (Mor-ris, 2013, 188-189). وهنا مكمن المقاربة لدى يوناس بين العلم وبين أسطورة بروميثيوس Prometheus، من حيث التجاوز والإفراط، والقوة غير المحدودة التي عادت هلاكًا على صاحبها.

ولغايات الأبعاد الجديدة لأخلاق المسؤولية، يستبدل يوناس الواجب الأخلاقي الكانطي: (افعل وكأن مسلمة سلوكك ستصبح بإرادتك قاعدة عامة)، بما يمكن أن يكون أكثر انسجامًا مع متطلبات العصر التكنولوجي، ويصيغه على النحو التالي: (افعل بحيث تكون تأثيرات أفعالك متوافقة مع ديمومة الحياة البشرية). وبتعبير آخر: (افعل بحيث تكون آثار أفعالك غير مدمرة لإمكانية الحياة في المستقبل). ليكون الحفاظ على شروط الحياة، أو مصير النوع الإنساني في الحاضر والمستقبل هدفًا متضمَّنًا في الفعل الإنساني الحر. (Jonas, 1984, 10-11). كيما نكون في سبيل تقدّم متحفظ Guarded Progress، لا تقدّم متهوّر Headlong Pro-gress، وهو أمر مُلح كواجب أخلاقي جديد تجاه المستقبل، مدفوع باستدلالات الخوف والحذر معًا، التي تمنح الفعل التكنولوجي غائية آمنة Safe Teleology، فالخوف هو المحفز السيكولوجي للأمر الأخلاقي لواجب المسؤولية.

تدافع جاكلين روس Jacqueline Russ عمّا تسمّيه "واقعيّة" هانس يوناس، قبالة من وصفوا موقفه بالطوباويّة، من خلال نقد يوناس لطوباوية بيكون "الرائد الحقيقي للطوباوية الحديثة"، بموقفه الداعي لغزو الطبيعة والسيادة عليها، فأضحت المعرفة استطاعة للكشف، وغلوًّا في السيطرة، من حيث هي قدرة على التحكم بلا ضابط أو حدود، بينما أخلاق المسؤولية تتناول المستقبل الأبعد للإنسانية. (روس، 2001، 85-84). من خلال تأكيد مسؤولية الإنسان عن مصير نوعه، في الحاضر وأفقه المستقبلي، باستبدال مفهوم السيطرة البيكوني، بمفهوم المسؤولية لدى يوناس.

وكمثال على أهميّة أخلاق المسؤولية، وضرورة التسييج الأخلاقي للعلم، فإنّ ما يسمى بالتلاعب الجيني Genetic Manip-ulation يتعلق بالهدف الأخير للتكنولوجيا المطبقة على الإنسان، كونه يشير إلى الحلم الأكثر طموحًا للإنسان الذي يسعى ليأخذ تطوره بيديه، ليس في مجال حفظ النوع، بل في ميدان تعديل النوع الإنساني في ما يعرف "بالتحسين الجيني" في الهندسة الوراثية Genetic Engineering. ما يمكن التساؤل فلسفيًّا هنا: هل لدينا الحق للقيام بذلك؟ ويرى يوناس أنّ هذا السؤال هو من أخطر ما يمكن طرحه على الإنسان الذي يسعى لامتلاك قوى مصيرية Fateful Powers. فمن سيكون الصانع The makers؟ وبأي معايير Standards؟ وعلى أساس أي معرفة؟ كذلك يجب طرح سؤال الحق الأخلاقي في إجراء التجارب على البشر؟ إنّ هاته الأسئلة، وغيرها تتطلب إجابة قبل الشروع في رحلة إلى المجهول، وهي تظهر بوضوح إلى أي مدى تدفعنا قوتنا للتصرف فيما وراء شروط جميع الأخلاق السابقة Former Ethics. (Jonas, 1984, 21). إنها علموية تعيد اكتشاف سؤال الإنسان ككائن أخلاقي، ومن ثمّ تغيير فهمنا عن نوعنا ككائنات حرة وعاقلة، وتماهي النمو الطبيعي بالنمو الصناعي، وتعدّي على النوع الإنساني "كمركب مقدّس من الجسد – النفس" بالتلاعب في سماته الطبيعية، وما يتضمنه من نتائج كارثية، من خلال ما وصلت إليه التقنيات البيولوجية الحديثة لكائنات مهندسة جينيًّا.

إنّ التلاعب بالإرث الجيني، وتبديل شروط الحياة والموت. إلى جانب الأسلحة المصنّعة بيولوجيًّا وكيميائيًّا ..إلخ، لا يعني السيطرة فحسب، بل إنها السلطة الثقافية للعلمويَّة التكنولوجية في أشد ذروتها وشموليتها. فعمليّة التطور البيولوجي لدى هابرماس، تشي بتحوّل ذاتي خطير قد لا يحمد عقباه. ولذلك (فإنّ المنظور الذي سيطرح هو أنه سرعان ما سيستطيع الجنس البشري أن يأخذ على عاتقه مسألة تطوره البيولوجي. أن يكون الإنسان "بطل التطوّر" أو أن يلعب "دور الله" كلاهما تعبير مجازي يشير إلى تحوّل النوع ذاتيًّا، وهذا ما يبدو أنه سيكون في متناولنا سريعًا). (هابرماس، 2006، 31-30). وهو ما يفرض سؤال البعد الأخلاقي للتقنيات الجينية الراهنة.

تكمن هنا أهميّة موقف يوناس المتمثل بأخلاق المسؤولية، المؤسَّسة على تجربة الإحساس بالخوف، والموقف ملزم للعلم لا بتوخي تحكم البشرية في مصيرها البيولوجي، بل بتوخي التحكم بالتحكم نفسه. (تاغييف، 2003، 115). فالمسؤولية تحذّر من خطر الاستخدام التكنولوجي الموسّع على الإنسان والطبيعة، فهي دراسة أخلاقية تنظر إلى تفاعلات الفعل التكنولوجي داخل الطبيعة، والآثار المترتبة عليها في الحاضر والمستقبل، آخذة الفعل التكنولوجي ميدانًا لدراستها الأخلاقية. ولذلك فالمسؤولية تمثل أخلاقيات التقنية بالدرجة الأولى. فالواقع التكنولوجي، أو العلمي بشكل عام، هو مشكل مُحرج لعلم الواجبات Deontolo-gy، حيث يكشف هذا الواقع عن أننا في عصر أمس ما يكون إليه، هو الحاجة لأخلاق تعيد مساءلة مفهوم التقدّم، والسؤال من جديد عن علاقة الإنسان بالطبيعة، في عصر أفرزت التقنية ضرورة ملحّة لإيجاد بُعد أخلاقي يجاري مشكلات هذا العصر، وهو ما حاول

يوناس معالجته بأخلاق المسؤولية.

صفوة القول، إنّ استخدامات التكنولوجيا الجماعية، تستبطن مفارقة السيطرة، فنحن نستخدم التكنولوجيا "بإرادتنا الحرّة"، ولغايات براغماتية حداثية ماكثة بوعينا الفردي والجماعي، ولكن من زاوية أخلاقية، الصورة بخلاف ذلك، فنحن ضحايا التشيؤ -Objec tification والاستيلاب Alienation حين تفرض التكنولوجيا نفسها علينا، لنكون محكومين باستخدامها، ومجبرين عليها، ولا نستطيع رفضها، أو التفكير خارجها، فهي من تسيطر علينا، في عملية الإكراه على استخدامها، هذا الإكراه الذي ينفي فكرة الحرية في الممارسة، فهي بالنهاية من تستخدمنا وليس العكس، وهذا دليل سيطرة لا حرية، ومفاده اضمحلال الروابط البشرية، جرّاء السيطرة للوسائل التقنية الحديثة على العلاقات بين البشر، وبرمجتها تكنولوجيًّا.

في السياق نفسه، سعى فلاسفة الأخلاق النظرية، بتعبير جاكلين روس، إلى تشكيل انتلجنسيا Intelligentsia علم الواجبات، لما ينبغي أن تكون عليه العلوم في إطار أخلاقي ينظم عملها، أو ما يجب فعله أخلاقيًّا، إذا ما أردنا استخدام المعنى الذي قصده جيرمي بنثام Jeremy Bentham مبتكر هذا المفهوم -Deontol ogy (ديونطولوجيا)؛ من حيث كونه جملة قواعد وواجبات مهنية ضابطة للعلوم كافة. إنّ علم الواجبات يمثل "مدونات أخلاقية" تقتضي التلازم الضروري بين الواجبات الأخلاقية، وبين الممارسات العلمية. (روس، 2001، 109). ولذلك ربما من الصواب القول بأنّ علم الواجبات هو "علم البقاء" على قيد الحياة؛ إنه العلم الذي يقف ضدًّا بوجه تكنولوجيا لا عقلانية تمثل أيديولوجيا طوباوية تجسّد خطرًا حقيقيًّا على الإنسان ومحيطه البيئي.

خاتمة

لقد كان من طموحات أخلاق المسؤولية، إعادة الاعتبار للطبيعة، وقلب التصور الجدلي لعلاقة الإنسان بها، فهو لا يملكها، ولا يتسيّدها على طريقة ديكارت، ولا هي ميدان للغزو والسيطرة على طريقة بيكون، وإنما تعامله معها في حدود المستخدم، وفي حدود جدلية المصلحة المتبادلة بينهما. فالأبعاد الجديدة التي أفرزتها القدرات التكنولوجية، تعيد النظر إلى الإنسان ككائن أخلاقي بمعنى العقل والإرادة الحرة، فإذا كانت الحرية هي جوهر الوجود الإنساني، وأن الإنسان مطبوع على الحرية كما أخبرنا كانط Immanuel Kant، فإننا في عصر الخوف من هذه الحرية، لاسيما مع تنامي قدرتنا التكنولوجية التي توصف بالمدمّرة، وكيلا تعود هذه القدرة المنطلقة وبالًا علينا على غرار شعلة المعرفة في محنة بروميثيوس، أو على غرار مصير الدكتور فاوست Faust الذي تجلت نرجسيته العلمية في رغبته بكمال المعرفة، فكان المقابل أن منح روحه للشيطان. الأمر الذي يطرح فكرة المسؤولية بما هي ضرورة لحماية الإنسانية من النزعة العلموية ومفاعيلها التكنولوجية الحديثة المنحلة من أي التزام أخلاقي مسؤول.

إنّ مقولة السيطرة على الطبيعة، بما في ذلك الطبيعة الإنسانية، والمدعومة بتطور تقني هائل، لاسيما التقنيات الجينية، جعلت من الضروري التشكك بمقولة التقدم، والتساؤل عن حدود معرفتنا العلمية، وإعادة سؤال الغاية منها، لاسيما في ظل هيمنة علموية تدعي أحقية التصدي لمشكلات الإنسان كافة، انطلاقًا من تطور علمي لا يعترف بالحدود الأخلاقية في اندفاعه الأداتي المخيف. فمن هذا الوضع، انبثقت حاجة أخلاقية، لدى هانس يوناس، تدعي حتمية المسؤولية، لإبراز حق الغير أو الآخر غير المتزامن معنا، فأخلاق المسؤولية تجعل للمستقبل وضعًا حقوقيًّا، لذلك يمكن الزعم بأنها شرط من شروط العدالة، بما هي حق الأجيال القادمة في العيش طبقًا لشروط طبيعية، وليست مصنعة أو مختارة من قبلنا في الحاضر. فالمسؤولية تعني وسم السيطرة بميسم السيطرة، من جهة عقلنة السيطرة للتقدم التكنولوجي، كشرط استقامة العلم بموجب المبادئ الأخلاقية، بخلق مركب من مقولة التقدم وعلم الواجبات، كيما يكون تقدّمنا التقني أكثر أمنًا، تقوده فضيلة الحذر وسيكولوجيا الخوف.

إعلان عدم تضارب المصالح

يتعهد ويُعلن الباحث أنه لا يوجد أي تضارب للمصالح من جراء نشر هذا البحث.

الدعم المادي للبحث

لم يحصل البحث على أي دعم مادي.

المراجع العربية:

أنّاس، جورج. (2005)، "الجينات وتصرفات الفرد، العنصرية والإبادة الجينية: نحو معاهدة دولية للحفاظ على الجنس البشري"، في بيندي، جيروم (إدارة وإشراف). (2005). القيم إلى أين؟ مداولات القرن الحادي والعشرين. ترجمة زهيدة درويش جبور وجان جبور، بيروت: دار النهار. قرطاج: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون.

تاغييف، بيير-أندريه. (2003). "أخلاقيات البيولوجيا: نحو مشروع قضية فكرية". ترجمة عبد الهادي الإدريسي. مجلة دفاتر الشمال، المغرب، العدد 7، 111 – 118.

رسل، برتراند. (1997). الصراع بين الدين والعلم، ط1، ترجمة أسامة إسبر، دمشق: دار الطليعة الجديدة.

روس، جاكلين. (2001). الفكر الأخلاقي المعاصر. ترجمة عادل العوا، بيروت: عويدات للنشر والطباعة.

هابرماس، يورغن. (2003). العلم والتقنية كإيديولوجيا. ترجمة حسن صقر، كولونيا: منشورات الجمل.

هابرماس، يورغن. (2006). مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية. ترجمة جورج كتوره، بيروت: المكتبة الشرقية.

هيدغر، مارتن. التقنية – الحقيقة – الوجود. ترجمة محمد سبيلا و عبدالهادي مفتاح. بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

English References:

Bertalanffy, Ludwig Von. (1960). "The Psychopathology of Scientism", Helmut Schoeck and James Wiggins (ed.). (1960). Scientism and Values, Canada: D. Van nostrand Company Ltd.

Habermas, Jürgen. (1984). The theory of communication Action. Thomes MC (trans.). Beacon Press.

Jonas, Hans. (1984). The Imperative of Responsibility: In search of an ethics for the technological age. Hans Jonas with the Collaboration of David Herr (trans.). Chicago; London: The University of Chicago Press.

Kojonen, Erkki Vesa. (2016). The Intelligent Design Debate and The Temptation of Scientism. New York: Routledge.

Moreno, Jonathan. (2007). "Bioethics and Bioterrorism", Bonnie Steinbock (ed.). (2007). The Oxford handbook of Bioethics, the United States: Oxford University Press.

Morris, Theresa. (2013). Hans Jonas's Ethic of Responsibility: from Ontology to Ecology. the United States of America: State University of New York Press.

Rothbard, Murray N. (1960). "The Mantle of Science", Helmut Schoeck and James Wiggins (ed.). (1960). Scientism and Values, Canada: D. Van nostrand Company Ltd.

Rubin, Charles. (2008). "Human Dignity and the Future of Man", Human Dignity and Bioethics. (2008). Essays Commissioned by the president's council on Bioethics, Washington D.C.

Serres, Michel. (1995). The natural contract. Elizabeth MacArthur and William Paulson (trans.). United States of America: The University of Michigan Press.

Sorell, Tom. (2003). Scientism: Philosophy and the infatuation with Science. London; New York: the Taylor & Francis e-Library.

Stenmark, Mikael. (2018). Scientism: Science, Ethics and Religion. New York: Routledge.

Strausz-Hupe, Robert. (1960). "Social Science Versus the Obsession of (Scientism)", Helmut Schoeck and James Wiggins (ed.). (1960).Scientism and Values, Canada: D. Van nostrand Company Ltd.

Translated References:

Annas, George. (2005). "Genism, Racism and the Prospect of Genetic Genocide ..", Bindy, Jerome (ed). (2005). Values To Where?. translated by Zahida Darwish Jabbour and Jean Jabbour. Beirut: Dar An-Nahar.

Habermas, Jürgen. (2003). Science and Technology as Ideology. translated by Hassan Saqr, Cologne: Camel Publications.

Habermas, Jürgen. (2006). The future of human nature towards a liberal phylogeny. translated by George Kattora, Beirut: The Oriental Library.

Heidegger, Martin. Technology - Truth - Being. translated by Muhammad Sbila and Abd al-Hadi Moftah. Beirut; Casablanca: The Arab Cultural Center.

Russ, Jacqueline. (2001). Contemporary Moral Thought. translated by Adel Al-Awa, Beirut: Oweidat for Publishing and Printing.

Russell, Bertrand. (1997). The Conflict between Religion and Science. translated by Osama Esper, Damascus: Dar the New Vanguard, First Edition.

Taguieff, Pierre-André. (2003). Bioethics: Towards an Intellectual issue Project. translated by Abd al-Hadi Al-Idrisi, Notebooks North Magazine, Morocco, Issue (7).

سيرة ذاتية مختصرة للباحث

مالك المكانين

الدكتور مالك المكانين: محاضر غير متفرغ في الجامعة الأردنية, كلية الآداب – قسم الفلسفة. باحث في الفلسفة السياسية وفلسفة الأخلاق.